دون كيخوته والموريسكيون

أ. د. عبد النبي اصطيف(*)

يكتب كارلوس ويزلي Carlos Wesley في التقديم لمقالته «متعة قراءة ***دون كيخوته***» التي نشرتها مجلة «***فيدليو***» عام ٢٠٠٣م، استعدادًا للاحتفال بمرور أربعة قرون على ظهور هذه الرائعة العالمية، إن مسحًا أجري عام ٢٠٠٢م، شمل عددًا كبيرًا من أبرز أدباء العالم، يمثلون جميع قاراته، من إفريقية إلى أسترالية وأوربة وآسيا وأمريكا، أظهر أنهم «اختاروا ***دون كيخوته*** بوصفها أفضل عمل قصصي عالمي»، بل إن بن أوكري Ben Okri الروائي النيجيري المولد والذي يكتب بالإنكليزية، قال مخاطبًا محدثه:

«إذا ما كان هناك رواية ينبغي أن تقرأها قبل موتك، فإنها رواية ***دون كيخوته***»(١).

وإذا ما تفحص المرء **طبيعة علاقة العرب بهذه الرواية**، وجوانب حضورهم فيها، فإنه لا محالة سيخرج بانطباع مفاده أنه لا يمكن استيعاب دلالاتها، التي لا تزال تؤرق الباحثين المعنيين بأدب ثربانتس من الإسبان وغيرهم، دون الإحاطة

(*) أستاذ في جامعة دمشق- كلية الآداب.

(١) انظر: **Carlos Wesley, "The Joy of Reading Don Quixote", Fidelio, Vo. XII, No. 3, Fall 2003.**

بجوانب الحضور العربي والإسلامي فيها[٢]. وربما كانت عظمة هذه الرواية تكمن في تسامي مؤلفها الإسباني الكاثوليكي على معاناته الشخصية من جانب، وتساميه، من جانب آخر، على موقف إسبانية الكاثوليكية من ماضيها الأندلسي، ومن مواطنيها المسلمين الذي دخلوا في الدين الحنيف في القرون التسعة التي أمضاها العرب في شبه القارة الأيبرية قبل أن يُطردوا منها، في حملة «**التطهير العرقي**» التي شرعها مرسوم الملك الإسباني عام ١٦٠٩، وتقديمه رؤية إنسانية بحق لقضية في غاية الحساسية بالنسبة لإسبانية في مُدَّة ظهور جزأي الرواية بين عامي ١٦٠٥ و١٦١٥[٣]، هي قضية تَنَكُّر إسبانية لصلتها الإسلامية، ولمواطنيها المسلمين،

(٢) سبق لصاحب هذه السطور أن ألقى محاضرة بعنوان «**الحضور العربي في دون كيخوته**» في «**مؤتمر الكيخوته**» الذي نظمته كلية الآداب والعلوم الإنسانية في **جامعة دمشق** بالتعاون مع **معهد ثربانتس والسفارة الإسبانية** بدمشق احتفالًا بمرور أربعة قرون على صدور الجزء الأول من رواية «**دون كيخوته**» في الخامس من كانون الأول عام ٢٠٠٥م، وبمشاركة عدد من الكتاب والأكاديميين المختصين من سورية وإسبانية.

(٣) يكتب البروفيسور ليونارد باتريك هارفي في مقدمة محاضرته٣ التي ألقاها عام ١٩٧٤م بمناسبة تسنمه **كرسي ثربانتس للغة الإسبانية في كلية الملك في جامعة لندن**:

«امتد نشر جزأي **دون كيخوته** على مدى الأزمة الأخيرة للمشكلة الموريسكية في إسبانية، ولذا فإنه ليس من المفاجئ أنه ينبغي أن يظهر في الرواية بعض الانعكاس لما كان جيشانًا: سياسيا، وسكانيًّا، وثقافيًّا كبيرًا. كان تاريخ المجتمعات الموريسكية تاريخًا موجزًا وبائسًا، مبتدئًا باسترداد غرناطة عام ١٤٩٢ ومنتهيًا عام ١٦١١ بطردهم من إسبانية». وانظر:

Leonard Patrick Harvey, M. A. D. Phil., Servantes Professor of Spanish,
The Moriscos and Don Quixote,
Inaugural Lecture in the Chair of Spanish delivered at the University of London, King's College, 11 November 1974, p. 4.

وإصرارها على أن تكون مملكة خاصة بالكاثوليكيين البيض من سكانها دون غيرهم، في حملة عنصرية لا مثيل لها في تاريخ أوربة الغربية.

فالرواية، فيما يزعم ثربانتس، كانت مكتوبة بالخط العربي الذي تبيّنه، مع أنه لا يستطيع قراءته. وهكذا نراه يكتب في الفصل التاسع من الجزء الأول من الرواية:

«كنت ذات يوم في قناة طليطلة وجاء فتى ليبيع دفاتر وأوراقًا قديمة لتاجر حرير. ولأنني أهوى القراءة وأقرأ حتى أوراق الشارع الممزّقة، أخذت مدفوعًا بميولي الطبيعية دفترًا من الدفاتر التي كان يبيعها الفتى، فرأيت أنه مكتوب بحروف عرفت أنّها عربية، ولأنني على معرفتي بها لا أعرف قراءتها، رحتُ أبحث لعلي أعثر على مسلم مستَعجم يقرؤها، ولم أجد صعوبة بالعثور على مثل هذا المترجم، إذ حتى لو بحثت عن واحد يعرف لغة أقدم منها لوجدته»[٤].

وثربانتس لايذكر، ولعله لا يعلم حق العلم، إذا ما كانت لغتها الأصلية هي العربية الأندلسية التي سادت شبه القارة الأيبرية ثمانية قرون، أو أنها لغة الخميادو، أو الإسبانية التي دونها الموريسكيون بالحروف العربية.

وهو ما تناقشه كارول ب. جونسون في مقالتها الممتازة، التي نشرتها في ***نشرة جمعية ثربانتس الأمريكية*** ***The Cervantes Society of America***، وعنوانها: «مؤلفو ما قبل النص الأشباح والمؤلفون المتخيلون: سيدي حامد بننجيلي، ودون كيخوته، وأعراف القص عن القص في الروايات الرومانسية

(٤) ميغيل د ثربانتس، **دون كيخوت دلامانتشا**، ترجمة رفعت عطفة، (دار ورد، دمشق، ٢٠٠٤)، ص (١٠١).

الفروسية»[٥]. ومؤلفها، الشبح الكامن وراء النص المترجَم، عربي، إنه **سيدي حامد بننجيلي**[٦] **Cide Hamet Benengeli المؤرخ العربي historiador arabigo**:

(٥) انظر: Caroll B. Jonson,

:"Phantom Pre-texts and Fictional Authors

Sidi Hamid Benengeli, Don Quijote and
the Metafictional Conventions
of Chivalric Romances",
Cervantes: The Cervantes Society of America,
(2007.1) Spring 2007, Pp. 179-99.

(٦) لصلاح الدين بوجاه اجتهاد في قراءة الاسم يورده في مقالته:

«ميغال دي سرفنتيس».. في أصول صاحب «دون كيخوت الأندلسي» المنشورة في:

شبكة الأمة برس العربية الأمريكية الإخبارية المتعددة اللغات

THE NATION PRESS ARAB AMERICAN NEWS NETWORK

الناشر – رئيس التحرير : عبدالناصر مجلي

وخلاصة ما انتهى إليه في هذا المقام هو أن:

(أ- «السيد» و«حامد» لا جدال فيهما.

(ب- بن إنجيلي هي التي تتطلب التأويل، ويمكن أن تعيدنا إلى «البان نجال»، فالموريسكيون معروفون في إسبانية بتفضيله، وسانتشو «ج II ص ٩١٩» يشير إلى هذا، فضلًا على أن سرفنتيس «ج II ص١١٠٦» يلقب أهل طليطلة بـ «برنجينجينايروس».

(ج- بن إنجيلي، يمكن أن تقوم على الإحالة على الإنجيل، وترمز إلى ثنائية «السيد حامد/ ابن الإنجيلي».. وقد تتضمن إحالة على تشبث سرفنتيس بالمسيحية، مثلما عرف عنه أوانَ الأسر في الجزائر).

أما اسم المؤلف- المترجِم لكتاب سيدي حامد أو «**سرفنتيس**» فهو، فيما يراه السيد صلاح الدين بوجاه، «**لقب إسباني تعود جذوره إلى اللاتينية «سرفوس**Servus»، **أي العبد؟ على حين بن إنجيلي** Ben-Engeli **تحيل على العربية الأندلسية، حيث أن إيجل** Iggel

«وحين سمعته يقول «دولثينيا دل توبوسو» ذُهِلت وصعقت لأنني تصورت بسرعة أن ذلك الدفتر يحتوي على قصّة دون كيخوت، وبهذا التصور عجّلت به كي يقرأ البداية، وحين فعل ذلك قالبًا العربية إلى قشتالية قال إن العنوان: «قصة دون كيخوت دِ لا مانتشا، كتبها سيدي **حامد بننجيلي**، المؤرّخ العربي»[٧].

وقد ترجمها إلى اللغة القشتالية[٨]، مسلم مستعجم أو موريسكي **morisco aljamiado**، ومثله كُثْرٌ في تلك الأيام، لثربانتس الذي ترجمها بدروه إلى الإسبانية.

وهذا المؤرخ العربي هو «**مانشي من مانشا**»، وهو ما يؤكده ثربانتس في مطلع الفصل الثاني والعشرين من الجزء الأول من الرواية[٩]، فهو ليس من بقايا الفاتحين العرب أو الأمازيغ، ولكنه ينتسب إلى مانشا، فهو إسباني اعتنق الإسلام واكتسب العربية بالضرورة، أو لنقل هو موريسكي. وكما تشير «كارول جونسون» فإن

أو Eggel **تعني الخادم أو العبد. فيكون سرفنتيس قد أحدث تجاذبًا ما بين الأصلين اللغويين، بتأكيد التمازج الرمزي بين أصوله الحضارية المزدوجة».**

و «أما كيخوت El quijot, quixiste **فضرب من الدروع التي تحمي فخذ المحارب، ولقد اختار سرفنتيس أن يختم اللفظة الإسبانية باللاحقة** ote **التي تشير إلى التهكم**"le ridicule"

وانظر نص مقالته في موقع **شبكة الأمة برس**، وهي شبكة إخبارية عربية أميركية شاملة مستقلة، مسجلة قانونيًّا وتجاريًّا في ولاية ميتشجان بالولايات المتحدة.

(٧) ميغيل د ثربانتس، **دون كيخوت دلامانتشا**، ترجمة رفعت عطفة، (دار ورد، دمشق، ٢٠٠٤)، ص (١٠٢). يترجم رفعت عطفة Benengeli بـ «بن علي» مخالفًا بذلك الإجماع على أنه **بننجيلي** نسبة إلى الباذنجان الذي شهر أهل طليطلة بتناوله.

(٨) انظر **المصدر السابق**، ص ١٠٢ و ٥٨٢.

(٩) انظر **المصدر السابق**، ص ٢١٤.

«**سيدي حامد بننجيلي**» ينبغي أن يكون معاصرًا لدون كيخوته أو تاليًا له حتى يقوم بسرد مغامراته، ومن ثَمَّ فإنه موريسكي morisco ينتمي إلى من بقي من المسلمين العرب والإسبان واليهود الذين تنصروا حفاظًا على أرواحهم ونسائهم وأموالهم، ولاسيما بعد ثورة جبال «البوجرّا» Alpujarra عام ١٥٦٧م، التي تلاها مرسوم فيليب الثاني الملكي الذي يحرِّم على الأندلسيين التخاطب بالعربية أو مزاولة أي شعائر أو عادات إسلامية، ليعقبه مرسوم آخر عام ١٥٦٩ يقضي بنفي أهل غرناطة إلى الشمال الإسباني، ومرسوم ثالث عام ١٥٧٠ يمنع استعمال العربية من جانب الأندلسيين بأية صورة كانت(١٠). والحقيقة أنه بحلول عام ١٦٠٠ كان جل هؤلاء قد انصرف عن اللغة العربية، واتخذ لغة الخيميادو أداةَ تعبير وتواصل في حياته اليومية، وهي لهجة من لهجات اللغة الإسبانية كتبوها بالحرف العربي.

(١٠) يكتب البروفيسور هارفي عن التحول في موقف التاج الإسباني من مسلمي إسبانية من التسامح، الذي ورثه الإسبان عن العرب، إلى ضرب من التطهير العرقي لكل مسلم بعد ثورة البوجرا:

«كان الاتجاه العام واضحًا وجليًّا لا ريب فيه: لقد تحركنا من التسامح العام عام ١٤٩٢ إلى قمع كل مظهر من مظاهر الإسلام والثقافة العربية في إسبانية بعدعام ١٥٧٠. كانت إسبانية قبل عام ١٤٩٢ أرض الديانات الثلاث: المسيحية واليهودية والإسلام. وشهد عام ١٤٩٢ استبعاد اليهودية. ومنذ عام ١٤٩٢ وحتى التحولات المفروضة بالقوة للعشرينيّات [من القرن السادس عشر] كان هناك ديانتان متسامحتان، وأخيرًا، وفجأة، إلى حدٍّ بعيد، ونتيجة للإجراءات الفعالة التي اتخذتها الحكومة المركزية لمعالجة الأخطار الاستراتيجية الحقيقية التي واجهتها من جانب الثورة الغرناطية بين عامي ١٥٦٨-١٥٧٠، غدت إسبانية أرضًا لا يسمح فيها إلا بديانة واحدة، وتم القيام بمجهودات فعالة لاجتثاث أي انشقاق ديني»، انظر:

Leonard Patrick Harvey,
The Moriscos and Don Quixote, p.5.

ومعنى هذا أن النص الأصلي لـ ***دون كيخوته*** الذي وضعه سيدي حامد بنجيلي والذي ترجمه الموريسكي إلى القشتالية من لغة الخيميادو، هو نص افتراضي، قام ثربانتس بترجمة نسختِه القشتالية إلى الإسبانية.

ولعل هذا المؤلف الشبح، أو المؤلف الافتراضي، مجرد قناع لثربانتس[١١] نفسه الذي ربما تعلم العربية أو بعضًا منها عندما أمضى نحوًا من خمس سنين أسيرًا في الجزائر[١٢]،

(١١) يخلص **الدكتور محمود صبح**، أستاذ الدراسات العربية والإسلامية في جامعة Complutese في مدريد، بعد مناقشة مطوّلة لرأي الدكتور **محمود علي مكي** في اسم سيدي حامد بنجيلي، وإحالته الاسم على الباذنجان، أو على «الأيل» إلى أن اللغز «يبدو في نهاية المطاف محلولًا. حامد بنجيلي، حرفيًّا، وكلمة مقابل كلمة، هو ميغيل دو ثربانتس نفسه». خاصة وأن Cervantes تعني «ابن الغزال». وانظر مقالته بالإسبانية في صحيفة **El PAIS، السبت ٣١، ديسمبر/ كانون الأول، ٢٠٠٥**.

(١٢) انظر تفصيلات أسره ومحاولاته الأربع للهرب والتي انتهت بالإخفاق في:

- **سرفانطيس: أمير الأدب الإسباني**

بقلم الأستاذين نجيب أبو ملهم وموسى عبود

نشر المندوبية السامية الإسبانية بالمغرب- نيابة الأمور الوطنية- مكتبة الترجمة الإسبانية- العربية (مطبعة المخزن، تطوان، ١٩٤٧)، ص ٥٦-٥٧، والفصل الثاني من الكتاب المعنون بـ «في الأسر»، ص ٥٩-١٠١.

وكذلك في كتاب:

Maria Antonia Garces,
Cervantes in Algiers: A Captive's Tale
(Vanderbilt University Press, Nashville, 2002);

والفصل الثالث المعنون بـ « أسر في الجزائر(١٥٧٥-١٥٨٠)»، من كتاب:

Donald P. McCrory,
No Ordinary Man: The Life and Times of Miguel de Cervantes
(Peter Owen, London, 2002), pp 73-94

ولذلك لا نستغرب استعماله كلمة «الله Ala» ينسبها إلى سيدي حامد بننجيلي في مطلع الفصل الثامن من الجزء الثاني من الرواية، يكررها ثلاث مرات:

"Bendito sea **Ala**", repite tres"(١٣)

«الحمد لله، كررها ثلاثًا»(١٤)

ومما يعزز هذا الميل إلى **افتراض معرفة ثربانتس للغة العربية، ما يورده على لسان بطل روايته دون كيخوته من شرح لكلمة "Albogues" الأبواق، عندما يسأله سانتشو بانثا عنها، وما يمضي فيه بعدها من ذكر للكلمات المقترضة من لغة الموريسكيين من جانب، ومن اللغة العربية من جانب آخر:**

«ما هي الأبواق؟- سأل سانتشو- فلا أنا سمعت اسمها ولا أنا شاهدتها في حياتي؟

-الأبواق- ردّ دون كيخوت- صفائح على شكل شمعدان من النحاس الأصفر التي باصطدامها بأخرى في الفراغ والتجويف تُحدث صوتًا، وهو إن لم يكن لطيفًا

(١٣) انظر النص الأصلي في النسخة الإسبانية من الرواية:

Miguel de Cervantes,
Don Quixote de la Manch,
Edicion, Notas E Introduccion Alberto Belcua, (Espasa Calpe, S. A. 2007), p.745.

(١٤) انظر النص العربي في:

ميغيل د ثربانتس، **دون كيخوت دلامانتشا**، ترجمة رفعت عطفة، (دار ورد، دمشق، ٢٠٠٤)، ص٦١٥، وهو ما تؤكده الترجمة الإنكليزية **"Praised be the mighty Allah"** التي صدرت عن دار النشر «**مطبعة جامعة أكسفورد**» المعروفة بمستواها البحثي الرفيع، وانظر على أي حال نص الترجمة الإنكليزية في:

Miguel De Cervantes,
Don Quixote de la Manch,
Translated by Charles Jarvis, Edited with an Introduction and Notes by E. C. Riley, (Oxford University Press, Oxford, 1992), p. 513.

ولا منسجمًا إلا أنه ليس مزعجًا ويتناسب تمامًا مع خشونة مزمار القربة والطبلة. وهذا الاسم موريسكي، كما هو حال جميع تلك الموجودة في لغتنا القشتالية وتبدأ بـ «**الـ**». ومن المناسب أن نعرف almohaza المحسّة، almorzar تناول طعام الغداء alhombra الحمرا alguacil الوزير alhucema الخزامى almacen المخزن alcancia القنصية وأخرى مثلها وهي أكثر قليلًا، وهناك فقط ثلاث في لغتنا تنتهي بـ «ي» وهي من أصل موريسكي وهي borcegui بورثيغي zaquizami السعف الشامي وmaravedi مرابطي وأمّا alheli الحلي وalfaqui الفقيه فمعروف أنهما عربيتان لأنهما تبدأان بـ «**الـ**» وتنتهيان بـ «**ي**»، قلت لك هذا عبورًا وخطر ذلك ببالي لأنك ذكرت كلمة البوق، وهذا ما يجب أن يساعدنا عليه كوني أنا شاعرًا إلى حدٍّ ما وكون المجاز المتوسط سنسون كارسكو شاعرًا بكلّ معنى الكلمة، ولا أقول شيئًا عن القس، لكنني أراهن على أن عنده لآلئ وأطواقًا من الشعر. أما المعلم نيكولاس فمما لا شك فيه أن عنده منها الكثير لأن معظم الحلاقين عازفو قيثارات وكاتبو أغان. أنا سأشكو الفراق وأنت ستمتدح في نفسك العاشق الثابت. والراعي كاراسكون سيتناول الصد، والقس قسوس ما حلا له، وهكذا ستسير الأمور كما لا يمكن أن يوجد ما يشتهى بعدها» (ص ١٠٨٦–١٠٨٧)[١٥].

أو لعل ثربانتس نفسه هو موريسكي، إسباني مسلم، تنصر حفاظًا على روحه،

(١٥) تشير جميع الأرقام الواردة بين قوسين إلى صفحات الترجمة العربية للرواية بترجمة رفعت عطفة المشار إليها في حواشٍ سابقة.

ووطنه، حتى لا يُقتلَع منه، كما حدث لغيره من المسلمين واليهود معًا، وثمة ما يشير في حياته إلى أن أسرته حديثة العهد بالنصرانية(١٦)، و ربما كانت موريسكيته، وهذا مجرد اجتهاد، وراء تصويره المتعاطف لِريكوتيه Ricote الموريسكي الذي طُرِد من وطنه، وعاد إليه متخفيًا بصفة حاج، باحثًا عن الكنز الذي دفنه، وعن ابنته وزوجته اللتين فقدهما بعد ارتحاله من إسبانية إلى فرنسا، ثم إلى الجزائر وألمانيا حيث انتهى به المطاف، والتي انطلق منها في رحلة عودته متخفيًا إلى بلده الأصلي إسبانية.

ولكن من هو الموريسكي:

يشير البروفسور ل. ب. هارفي، L. P. Harvey، وهو أستاذ شرف للإسبانية وأدبها في جامعة لندن، وحجة ثقة في تاريخ الموريسكيين وثقافتهم وأدبهم، في كتابه الرائع «***المسلمون في إسبانية: ١٥٠٠-١٦١٤***» الصادر عن **مطبعة جامعة شيكاغو** عام ٢٠٠٥، إلى **أن morisco صفة مشتقة من كلمة moro التي استعملها الإسبان للإشارة إلى سكان شمالي إفريقية أو المسلمين، وتعني كل ما له علاقة بهم، وهو استعمال قديم ومستمر حتى يومنا هذا ومنه عبارة الجلد الموريسكي Piel Morisco**.

غير أن ثمة معنىً ثانيًا أكثر تحديدًا، وأضيق في مجاله الدلالي، استعمل منذ منتصف القرن السادس عشر للإشارة إلى **المسلمين الذي استقروا في إسبانية بعد خروج المسلمين واليهود منها وعُمِّدوا بوصفهم متنصرين على المذهب الكاثوليكي السائد**

(١٦) انظر مقالة صلاح الدين بوجاه ،

«ميغال دي سرفنتيس».. في أصول صاحب «دون كيخوت» الأندلسي في:

شبكة الأمة برس العربية الأمريكية الإخبارية المتعددة اللغات

THE NATION PRESS ARAB AMERICAN NEWS NETWORK

الناشر – رئيس التحرير : عبدالناصر مجلي.

في إسبانية آنذاك، والذي حرصت عليه السلطتان الزمنية والدينية اللتان بذلتا ما بوسعهما لتطهير إسبانية من كل شائبة غير كاثوليكية.

وهذا التعريف مستمد من ***معجم المجمع الملكي الإسباني*** الذي يُعَرِّف الـ morisco بأنه «**يقال للمسلمين الذين بقوا في زمن إعادة إحياء إسبانية، وعُمِّدوا**». ويرى هارفي أن هذا التعريف يجب أن يشمل ثلاثة أجيال أو أربعة أجيال من المتحدرين من أصول هؤلاء المسلمين الذين تنصروا على غير إرادة منهم، وأنّه يُبرز بحق موقف الأكثرية الكاثوليكية الإسبانية تجاه هذه الأقلّية الدينية، التي يُنظر إليها على أنها حديثة العهد بالنصرانية، وأنها لذلك **أقل كاثوليكية من الأكثرية، ومن ثمَّ فإنها أدنى منزلة وأقل جدارة بالعيش في إسبانية**. ولذا فإن ملك إسبانية فيليب الثاني لم يتردد في أن يحرّم على هؤلاء الموريسكيين التخاطب بالعربية أو استعمالها بأية صورة من الصور، وهذا الأمر اضطرهم إلى استعمال لغة الخيميادو أو «الأعجمية» وهي لهجة من لهجات اللغة الإسبانية الدّارجة، وكتابتها بالحرف العربي(١٧).

مهما كان الأمر، فلننظر بداية إلى تصوير ثربانتس للموريسكي ريكوتيه عندما يلتقي مع عدد من الحجاج الألمان، سانتشو بانثا في الفصل الرابع والخمسين من الجزء الثاني من الرواية، ويهجم عليه محيطًا بخصره قائلًا له بصوت عال **ولهجة قشتالية سليمة**:

(١٧) انظر: ص (٢-٣) من القسم المعنون بـ «أهمية الأسماء: مسلم، موريسكي، متحّول جديد عن دينه»، ص ٢-٦، من كتابه:

L.P. Harvey,
Muslims in Spain: **1500 to 1614**
(The University of Chicago Press Chicago & London, 2005), pp. 2-6.

«يـاإلهي! مـاذا أرى؟ هـل مـن المعقـول أن أحضـن بـين ذراعـيّ صـديقي الغـالي وجاري العزيز سانتشو بانثا؟ نعم إنه هو فلا أنا نائم ولا سكران الآن.

دهـش سانتشـو بانثـا مـن سـماعه ذكـر اسـمه ورؤيتـه لنفسـه معانَقًـا مـن الحـاج الأجنبي، وبقي ينظر إليه باهتمام بالغ، لا ينبس بكلمة واحدة، ولم يستطع تَعَرُّفَه، وحين رأى الحاجّ ذهوله قال له:

ـ كيف؟ هـل مـن المعقـول ألّا تعـرف يـا أخـي سانتشـو بانثـا، جـارك الموريسكيّ ريكوتِ، حانوتيّ ضـيعتك؟

وعندئذ راح سانتشو ينظر إليـه بـاهتمام أكـبر، وراح يتصـوره حتـى عرفـه أخـيرًا تمامًا، فعانقه بذراعيه دون أن ينزل عن حماره وقال له:

ـ أيّ شـيطان سـيعرفك يا ريكوتِ وأنت في ثياب المهرج هـذه؟ قـل لي مـن عمـل منك إفرنجيًّا وكيـف تجـرؤ عـلى العـودة إلى إسـبانية، التـي لـو أمسـكوا بـك فيهـا لوقعت فيما لا تحمد عقباه؟

ـ إذا كنت أنت لم تستطع أن تكتشفني، يا سانتشو – رَدَّ الحاجّ– فأنـا واثـق مـن أن أحدًا لن يستطيع أن يعرفني في هذه الثياب، ولنخرج من الطريق إلى غابـة الحـور هذه التي يبدو أن رفاقي يريدون أن يأكلوا ويرتاحوا فيها وهناك سـتأكل معهـم، فهم قوم مسالمون وبذلك سيكون لدي الوقت كي أحكي لـك مـا جـرى لي بعـد خروجـي مـن قريتنـا احترامًـا **للأمـر الملكـي الـذي يهـدد بؤسـاء أمتـي بكثـير مـن القسوة، حسب ما سمعت**»[١٨] (ص٩٨٢-٩٨٣).

(١٨) جميع التوكيدات المطبوعة بحـرف أسـود، والتـي تتخلـل النصـوص المقبوسـة مـن الروايـة، تعود لصاحب هذه السطور.

وبعد أن أخذ الجميع نصيبهم من الطعام والشراب والراحة أخلدوا إلى النوم، فانتحى «ريكوته وسانتشو» – اللذان بقيا يقظين لأنهما أكلا أكثر وشربا أقل – جانبًا، وجلسا إلى جذع شجرة زان تاركين الحجاج الآخرين غارقين في نومهم العذب، وقال له ريكوته «**بلغة قشتالية خالصة لايشوبها شيء من اللغة الموريسكية**» الكلمات التالية:

«تعرف جيدًا ياصديقي وجاري العزيز أن **المرسوم الذي أمر صاحب الجلالة بنشره المُعادي لِأمّتي قد نشر الذعر والرعب بيننا**. كان على الأقل في حالتي جيّدًا، فقد تصوّرت قبل الموعد الذي منح لنا للخروج من إسبانية، العقاب الواقع عليّ وعلى أولادي، لذا قررت بنوع من الحكمة (كمن يعلم أنهم مع الزمن سينتزعون منه بيته الذي يعيش فيه ويحتاط بامتلاك آخر ينتقل إليه) أقول قررت أن أخرج أنا دون أسرتي من قريتي وأبحث عن الحياة في مكان آخر أكثر راحة، ودون عجلة كما خرج البقيّة، لأنني رأيت كما رأى جميع شيوخنا أن تلك المراسيم لم تكن مجرد تهديدات، كما كان يقول بعضهم، بل قوانين يجب أن تنفذ في وقتها المحدد. وعزز هذه الحقيقة عندي معرفتي بمحاولات أبناء ملتي البائسة والحمقاء، حتى إنني أعتقد أن **إلهامًا إلهيًّا** جعل الملك يصدر قراره الحازم، ليس لأننا **كنا جميعًا مخطئين، فقد كان بيننا من كانوا نصارى حقيقيين وثابتين، لكنّهم كانوا من القلّة بحيث لم يكن باستطاعتهم أن يعارضوا من لم يكونوا كذلك، ولا يستحسن تربية الأفعى في الحضن والعدوّ في البيت**. أخيرًا **عوقبنا عقابًا عادلًا بالنفي**، الناعم والرقيق بالنسبة لبعضهم، لكنّه بالنسبة إلينا أفظع ما يمكن أن يصدر بهذا الخصوص، فنحن **حيث نكون نبكي إسبانية، في النهاية ولدنا فيها وهي وطننا الطبيعي**، وما من مكان نلقى فيه الترحاب الذي

أراده لنا شقاؤنا، ففي بلاد البربر وجميع أنحاء إفريقية حيث كنّا نعتقد أننا سنلقى الترحاب والرعاية، هناك يهينوننا ويُسيئون معاملتنا أكثر من أي مكان آخر. لم نعرف خيرَنا حتى فقدناه، وأعظم رغبة عندنا هي أن **نستطيع العودة إلى إسبانية**، ومعظم أولئك (وهم كُثْر) الذين **يعرفون اللغة مثلي** يعودون إليها ويتركون نساءهم وأولادهم هناك دون حماية؛ إلى هذا الحد وصل حبهم لها. وأنا الآن أعرف وأعيش تجربة ما يقال عادة: حلو حب الوطن. خرجت كما أقول، من قريتي؛ دخلت إلى فرنسا، وعلى الرغم من الترحاب الجيّد الذي استقبلونا به هناك، إلا أنني أردت أن أرى كل شيء. عبرت إلى إيطاليا، ووصلت إلى ألمانيا، ووجدت أن من الممكن العيش هناك بحرية أكبر، لأن سكانها لا يتوقفون عند الكثير من التفاصيل: كل واحد يعيش كما يشاء، لأنّ غالبيتهم يعيشون مرتاحي الضمير» (ص ٩٨٥-٩٨٦).

«والآن أنوي يا سانتشو أن أخرج الكنز الذين تركته مطمورًا وأستطيع فعل ذلك لأنه خارج البلدة؛ أخرجه وأكتب إلى زوجتي وأولادي الذين أعلم أنهم في الجزائر، وأضع خطة للكيفية التي أستطيع أن آتي بهم إلى فرنسا لأحملهم من هناك إلى ألمانيا، حيث سننتظر ما سيفعل الله بنا. بالنتيجة أعرف، ياسانتشو، أن **ابنتي لاريكوتا وزوجتي فرانسيسكا نصرانيتان كاثوليكيتان، وأنا مع أنني لم أبلغ هذا الحد، إلا أنني نصراني أكثر مما أنا مسلم، وأدعو الله دائمًا أن يفتح عينيّ على الفهم ويوفقني في معرفته كما يوفقني في خدمته**. وما يدهشني هو أنني لا أعرف لماذا ذهبت زوجتي وابنتي إلى بلاد البربر ولم تذهبا إلى فرنسا، حيث تستطيعان **أن تعيشا كنصرانيتين**» (ص ٩٨٦)، وبعدها يحاول ريكوتيه أن يغري سانتشو بانثا

بمساعدته على استعادة ما خبأه في مطمورته واعدًا إياه بمئتي اسكودو، غير أن هذا الأخير يرى في ذلك خيانة لملكه ومساعدة لعدوِّه فيرفض عرض ريكوتيه، ولكنه يتركه لحاله:

«قلت لك، ياريكوت، إنني لا أريد، وارْضَ بأنني لن أكشف عنك، وتابع طريقك بأمان الله، واتركني أتابع طريقي، فأنا أعرف **أن الحلال يذهب والحرام يذهب هو وأهله**» (ص ٩٨٨).

ويسأله ريكوتيه: هل كنتَ في القرية عندما غادرتها ابنته وزوجته وابن حماه(*)؟ فيجيبه:

«نعم كنت– رد سانتشو– وأعرف أن ابنتك خرجت في غاية الجمال وأن جميع من كانوا في القرية خرجوا ليروها، والجميع كانوا يقولون إنها أجمل مخلوق في العالم. كانت تبكي وتعانق جميع صديقاتها ومعارفها وكل من استطاع رؤيتها، وكانت تطلب من الجميع الدعاء لها أمام الله وسيدتنا أم الرب. كل ذلك بكثير من التأثر والعواطف حتى إنها أبكتني، وأنا لستُ بكّاءً في العادة، وصدقًا رغب الكثيرون في إخفائها والخروج وراءها وأخذها من الطريق، لكن الخوف من عصيان أمر الملك أوقفهم. وأكثر من بدا متأثّرًا ومتحمّسًا كان دون بدرو غريغوريو الفتى الثري الذي تعرفه ويقولون بأنه يحبّها كثيرًا، ولم يظهر في القرية بعد رحيلها أبدًا، وقد فكّرنا أنه لحق بها ليختطفها، لكن حتى الآن لم يعرف عنه شيء.

(*) (حَمٌ) من الأسماء الخمسة، يُجر بالياء حين يضاف إلى غير ياء المتكلم: ابن حَمِيْهِ على أن من العرب من يُلْزمها الألف دوماً كأنها اسمٌ مقصور فيقول: جاء حَماهُ، رأيت حَماهُ، سلّمت على حَماهُ [المجلة].

–دائمًا راودني شكّ بأن هذا الفارس كان مُوَلَّـهًا بابنتي، لكنّني كنت دائمًا أثق بابنتي ريكوتا، ولم يثقل علي قط أنه كان يحبها جيدًا، فقد سمعتُ أن **الموريسيكيات لا يدخلن أبدًا أو نادرًا ما يدخلن في علاقات غرامية بالنصرانيين القدماء، وابنتي كانت تميل، حسَب ما أعتقد، إلى أن تكون نصرانية أكثر من أن تكون عاشقة، إلّا أنها لن تحفل بلجاجة هذا الفتى**» (ص ٩٨٨–٩٨٩).

وبعد أن عرفنا ما دار بين سانتشو بانثا وريكوتيه من حديث عن مغادرة ابنته وزوجته وابن لقريته، لِنلتفِتْ إلى ما حدث لها بعد ذلك، ولْنعرِضْ لقصتها المثيرة عندما ظهرت أمام نائب الملك بعد مطاردة القوادس لمركبها وأسرها مع مجموعة من القراصنة الأتراك.

يتحدث ثربانتس في الفصل الثالث والستين المعنون بـ «عن الشر الذي لحق بسانتشو بانثا من زيارته للسفن والمغامرة الجديدة للموريسكية الجميلة» (ص ١٠٥٨–١٠٦٧)، عن زيارة كل من دون كيخوته وسانتشو بانثا للقوادس بصحبة مضيفهما دون أنطونيو مورِنو، وعن شهود الجميع عملية مطاردة يقوم بها ثلاثة قوادس لمركب جزائري للقراصنة انتهت بقتل جنديين إسبانيين بطلقين ناريين من بندقيتي تركيَّين سكرانَين. وكيف أن قائد القوادس قرر إذ ذاك شنق كل من في المركب، فسأل من يكون رئيس المركب، فرد عليه أحد الأسرى بالقشتالية (تبين فيما بعد أنه مرتد إسباني):

«– هذا الفتى الذي ترونه هنا هو رئيسنا، يا سيد.

وأشار إلى واحد من أجمل وأرشق الفتيان الذين يمكن للخيال البشري أن يتصوّرهم، وعمره كما يبدو لا يصل العشرين، سأله القائد:

– قل لي، أيها الكلب المتهوّر، ما الذي دفعك لقتل جنديّي وأنت ترى استحالة هربك؟ أهذا هو الاحترام الذي يراعى لسفن القيادة؟ ألا تعلم أن التهوّر ليس شجاعة؟ والأمل الضعيف يجب أن يجعل الرجال جسورين لا متهوّرين» (ص ١٠٦١ – ١٠٦٢).

وإذ نظر نائب الملك إلى الفتى الوسيم، ورآه بذلك الجمال وتلك الرشاقة والتواضع، فقد راودته فكرة إنقاذه من الموت الذي ينتظره وهكذا فإنه سأله:

«–قل لي، أيّها الفتى **هل أنت تركيّ أم مغربيّ أم مرتدّ؟**

فردّ عليه الفتى **بلغة أيضًا قشتالية:**

– **لست تركيّ الجنسية ولا مغربيًّا ولا مرتدًّا.**

– ما أنت إذن؟ – ردّ نائب الملك.

– **امرأة نصرانية** – ردّ الفتى.

– امرأة نصرانية وبهذه الملابس وهذه الحالة؟ هذا شيء يثير العجب أكثر مما يمكن أن يصدّق.

– أوقفوا – قال الفتى – أيّها السادة، تنفيذ الموت، فلن تخسروا كثيرًا في تأجيل الانتقام ريثما أحكي لكم قصّة حياتي.» (ص ١٠٦٢ – ١٠٦٣).

وهكذا يمضي الفتى الوسيم ظاهرًا/ المرأة الحسناء فعلًا/ في سرد قصة حياتها:

«أنا من تلك الأمة البائسة، أكثر مما هي حكيمة، التي انهمر فوقها في هذه الأيام بحرٌ من الفواجع. وُلِدت من **أبوين موريسكيين**، وفي مجرى شقائهما حملني عمّاي إلى بلاد البربر، دون أن يجديَني نفعًا، **قولي بأنني نصرانية، كما أنا بالفعل،**

ولست من المتظاهرات والمزيّفات، بل من **الحقيقيات والكاثوليكيات**. لم يفِدْني قول الحقيقة مع من كان على عاتقهم أمر نَفْيِنا البائس، ولا عمّاي أرادا أن يصدّقاني بل اعتبراني كاذبة ومخادعة كي أبقى في البلد الذي وُلِدت فيه، وهكذا حملاني معهما بالقوّة أكثر مما بالرغبة. كانت لي **أم نصرانية وأب نصراني وحصيف لا أكثر ولا أقل، رضعت العقيدة الكاثوليكية مع الحليب، وتربّيت على العادات الحسنة ولم أظهر أيّ علامة بأنّني موريسكية لا في العادات ولا في اللغة قط**. وفي ظلّ هذه الفضائل (التي أعتقد أنني أملكها) ترعرع جمالي، هذا إذا كان لي جمال. وعلى الرغم من حذري وحبسي الذي كان طويلًا، فإنه لا يبدو أنه كان طويلًا جدًّا إلى الحدّ الذي لم يتح فرصة أن يراني فتى فارسًا – كذا– يدعى غاسبار غريغوريو، الابن البكر لفارس، قريتُه بجانب قريتنا. كيف رآني؟ وكيف تحادثنا وكيف هام بي وكيف استمالني؟ هذا شيء تطول روايته، خاصة أنني في وقت **أخاف فيه أن يدخل الحبل القاسي الذي يهددني بين اللسان والحَنْجرة**. ولهذا سأقتصر على القول كيف أراد دون غريغوريو أن يرافقني إلى منفاي. اختلط بالموريسكيين الذين خرجوا مع قرى أخرى، لأنّه كان **يعرف اللغة جيّدًا** وأقام خلال رحلته صداقة مع عمّين لي حملاني معهما، لأنّ والدي الحكيم والحَذِر ما إن سمع بقرار نفينا الأوّل حتى خرج من القرية وراح يبحث عن قرية في إحدى الممالك الغربية تستقبلنا، وقد ترك كثيرًا من اللآلئ والأحجار الكريمة وبعض المال من الكروثادو والوالدولونات الذهبية مخبّأة ومطمورة لا أحد يعرف بها غيري. أمرني بألّا ألمس الكنز الذي تركه ولا بشكل من الأشكال إذا ما نفونا قبل عودته، وهكذا فعلتُ، وعبرنا أنا وعمّاي وبعض الأقارب

إلى بلاد البربر، والمكان الذي نزلنا فيه هو الجزائر، وكان كما لو أنّنا نزلنا في الجحيم ذاته. علم الملك بجمالي كما علم بثرائي، وكان هذا لمصلحتي نسبيًّا، فاستدعاني للمثول أمامه وسألني من أيّ منطقة من إسبانية أنا، وما المال والمجوهرات التي أحضرتها معي. أعلمته بالمكان الذي طمرنا فيه المال والمجوهرات، وأنّه من السهل استعادتها إنْ عدت بنفسي للبحث عنها. قلت له كلّ ذلك وأنا خائفة من أن يعميه طمعه وليس جمالي. وبينما هو معي في هذا الحديث جاءه من يخبره بأنه جاء معي واحد من أجمل وأرشق الفتيان الذين يمكن تصوّرهم، ففهمت فورًا أنهم يتكلمون عن غاسبار غريغوريو الذي يخلّف جماله معظم ما يمكن أن يقدّر من جمال.

ارتبكتُ، وأنا أفهم الخطر الذي يتهدّد دون غريغوريو، **لأنّهم عند أولئك البربر يقدّرون الفتى أو الصبي** الجميل **أكثر من المرأة مهما كانت جميلة**. فأمر الملك بإحضاره والمثول بين يديه ليراه وسألني ما إذا كان صحيحًا ما قالوه له عن ذلك الفتى، وعندئذ قلت له وكأنّ السماء ألهمتني نعم كان كذلك، لكنّني أحيطه علمًا بأنه ليس فتى بل فتاة مثلي وإنني أتوسّل إليه أن يتركني أذهب لأجعله يرتدي ملابسه الطبيعية كي يتبدّى في أكمل جماله، وأقل خفره في حضرته. سمح لي بالذهاب، في ساعة مباركة وسعادة، وبأننا سنتكلم في اليوم التالي عن الطريقة التي يمكنني العودة بها إلى إسبانية لإخراج الكنز المطمور. تحدّثت مع غاسبار، وحكيت له عن الخطر الذي يتهدده إذا ما أظهر أنّه رجل. ألبسته ملابس مسلمة وأحضرته في ذلك المساء ذاته أمام الملك الذي ما إن رآه حتى ذهل وأشار بالاحتفاظ بها لتقديمها هديّة للباب العالي؛ وتفاديًا من الخطر الذي يمكن أن يحدق به في الحريم وخوفًا من نفسه أمر بوضعها في بيت بعض

الوجيهات المسلمات ليخبّئنها ويخدمنها، إلى حيث حملوه بسرعة، وهو ما أسفنا له كثيرًا أنا وهو. لا أستطيع أن أنكر أنّني أحبّه، ولنترك الأمر لمن ينفصلون ويُحِبُّ بعضهم بعضًا.

وضع الملك بعد ذلك خطّة لعودتي إلى إسبانية على هذا المركب برفقة تركيين، هما اللذان قتلا **الجنديّين**، وجاء معي أيضًا هذا المرتدّ الإسباني – مشيرة إلى أوّل من تكلّم – والذي أعرف جيّدًا **أنّه نصراني متستر وهو يأتي برغبة للبقاء في إسبانية** أكثر من العودة إلى بلاد البربر، أما بقيّة مجموعة البحارة فهم مغاربة وأتراك وليس من فائدة منهم غير التجذيف. التركيان وقحان وطمّاعان، لم يحافظا على الأمر الذي جئنا به والقاضي أن يقذفا بنا إلى البرّ أنا وهذا المرتد في أوّل منطقة نصل إليها في إسبانية بزي النصارى الذي تزوّدنا به، فقد أرادا أن يمشطا هذا الشّاطئ أولًا ويسرقا ما يستطيعانه، خائفين من أنّهما إذا ما ألقيا بنا أوّلًا يمكن أن نُكشف، لو حدث لنا طارئ ما، أنّ المركب في البحر، وأنّه إذا ما كان هناك قوادِس على هذا الشاطئ يمكن أن يأسروهما. اكتشفنا في الليل هذا الشاطئ، واكتشفتنا هذه القوادس الأربعة دون أن نعلم، وحدث معنا ما رأيتم. بالنتيجة بقي دون غريغوريو في زي امرأة بين النساء، وفي خطر بالهلاك جليّ وأنا أرى نفسي مقيّدة اليدين منتظرة، أو بالأحرى خائفة من أن أفقد حياتي التي صارت تتعبني. هذه هي – أيّها السّادة – قصتي المحزنة، والحقيقيّة بقدر ما هي شقيّة. ما أرجوه منكم هو أن تتركوني **أموت كنصرانية، فأنا لم أرتكب أي خطأ من الأخطاء التي ارتكبها أبناء أمّتي**».

(ص ١٠٦٣– ١٠٦٥).

ويتابع ثربانتس سرد بقيّة القصّة المؤثرة فيضيف:

«ثم سكتت وقد طفرت عيناها بالدموع الرقيقة وهو ما رافقها به كثيرون ممن كانوا حاضرين هناك. اقترب نائب الملك الرقيق والمشفق وفك الرباطين اللذين كانا يوثقان يدي الموريسكية الجميلتين بيديه ذاتها، دون أن ينبس بكلمة واحدة.

وبينما كانت **الموريسكية النصرانية** تروي حكايتها المهاجرة كان حاج عجوز، دخل القادِس مع نائب الملك يغرز عينيه فيها، وما كادت تنهي الموريسكية حديثها حتى ارتمى على قدميها، وعانقهما بكلمات يقطعها ألف انتحاب وزفرة وقال لها:

–آه، يا آنا فليكس، يا ابنتي الشقيّة! أنا أبوكِ ريكوتِ عدتُ أبحث عنك لأنني **لا أستطيع** العيش دونك، فأنت روحي.

وعند سماع كلماته فتح سانتشو عينيه ورفع رأسه (الذي كان خفضه مفكرًا في مأساة مشواره) **ونظر** إلى الحاج فعرف أنه ريكوت، نفسه الذي وقع عليه يوم خرج من حكومته، **وأكّد أن تلك ابنته** التي ما إن فك وثاقها حتى عانقت والدها خالطة دموعها بدموعه، وقال للقائد ونائب الملك:

–هذه، أيها السادة، ابنتي، شقيّة في الصروف أكثر مما في الاسم: اسمها آنا فليكس، وكنيتها ريكوت، مشهورة بجمالها كما بثرائها. وقد خرجتُ من وطني أبحث عن ممالك غريبة تؤوينا وتستقبلنا وعثرت عليها في ألمانيا، وعدت في زيّ الحجّاج هذا بحثًا عن ابنتي ولأخرج ثروة كبيرة خبّأتها. لم أعثر على ابنتي، وعثرت على الكنز، وهو معي والآن وبمصادفة غريبة رأيتموها، عثرت على الكنز الذي يغنيني أكثر، ألا وهو ابنتي العزيزة، وإذا كان ذنبنا القليل ودموعها ودموعي بالتكامل مع عدالتكم يمكن أن تفتح لنا باب الرحمة فاستخدموها معنا فنحن لم

نفكّر قط بإهانتكم، **ولم نتفق قط ولا بشكل من الأشكال مع مقاصد أهلنا الذين نفوا بعدل**» (ص ١٠٦٥ – ١٠٦٦).

وهكذا تنجو آنا فليكس الموريسكية من الموت، وينجو أبوها معها، ويقيمان في بيت دون أنطونيو مورِنو، بانتظار ما سيفعله القوم لإخراج حبيبها غاسبار غريغوريو من الخطر المحدق به في الجزائر.

ومما يلاحظه المرء في سرد ما جرى لكل من ريكوتيه Ricote وابنته آنا فِليكس، أن **المرافعات التي يضمِّنها ثربانتس روايته دفاعًا عن عدالة قضية الموريسكيين وضرورة السماح لهم بالبقاء في إسبانية لأنها وطنهم وهم نصارى بحق رضعوا المذهب الكاثوليكي مع حليب أمهاتهم، تأتي على ألسنة الموريسكيين أنفسهم، وأنها تُقدَّم في جوٍّ يبعث على التعاطف معهم**. ومما يلاحظ كذلك في هذه المرافعات إلحاح الرجل وابنته على جملة من الأمور في مرافعة كل منهما (بداية أمام سانتشو بانثا من جانب ريكوتيه، وبعدها من جانب آنا فليكس ابنته وأبيها أمام نائب الملك والقائد وغيرهم من الشخصيات الإسبانية المعنية بتطهير إسبانية من الموريسكيين) بغرض تبرئة نفسيهما من كل ما لفقته السلطتان الدينية والزمنية من مسوغات لطرد الموريسكيين من وطنهم إسبانية، وتأكيد جدارتهما بالعيش فيها بوصفهما **مواطنين صالحَيْن كاثوليكيَّي المذهب قشتاليَّي اللغة، إسبانِيَّي العادات، بعيديْن كل البعد عن حماقات أبناء مِلَّتهما، في إشارة ضمنية إلى ثورات الموريسكيين على الملك الإسباني في القرن السادس عشر**.

وأول هذه الأمور **تمكنهما من اللهجة القشتالية السليمة، وحديثهما بلغة قشتالية خالصة لا يشوبها من اللغة الموريسكية أية شائبة**.

وثانيها أن **الابنة والزوجة نصرانيتان كاثوليكيتان**، وأن **ريكوتيه نفسه، وعلى حد قوله، نصراني** أكثر منه مسلمًا، في حين أن ابنته تؤكد أنها تحدرت من **أم نصرانية وأب نصراني حصيف مع أنهما موريسكيان**، وأن عمّيها حملاها على مغادرة إسبانية حملًا لأنهما لم يصدقاها ومضيا بها إلى بلاد البربر رغمًا عنها مع أنها من **النصرانيات الكاثوليكيات الحقيقيات وغير المزيفات**، فقد **رضعت العقيدة الكاثوليكية مع حليب أمها، وتربت على العادات الحسنة لهذه العقيدة، ولم تظهر أيًّا من علامات الموريسكية لا في العادات ولا في اللغة، وأكثر من هذا فإنها تود أن تموت نصرانية**، خاصة لأنها لم ترتكب أي خطأ من أخطاء أمتها.

وثالثها وصفُ ريكوتيه لقرار الملك بنفي الموريسكيين بأنه **إلهام إلهي ينطوي على حكمة كبيرة**، إذ لا يستحسن تربية الأفعى في الحضن، ولا العدو في البيت، ومن ثَمَّ فإن ما نزل بملته **عقاب عادل**، وما فعله بعض أفرادها هو محاولات بائسة وحمقاء، وهو لا يتفق مع مقاصد أهله الذين نفوا **بقرار عادل**، بل إنه **يتبرأ منها**.

ورابعها أنه مع أن الأمر الملكي قد هدد بؤساء أمته بكثير من القسوة، فإن الكثيرين من أمثاله ممن يتقنون اللغة القشتالية يغامرون، بل **يخاطرون بحياتهم في سبيل العودة إلى إسبانية التي يحبونها أيما حب، وأنهم يعيشون وهم يبكون وطنهم الطبيعي إسبانية، وأن أعظم رغبة هي أن يتمكنوا من العودة إلى إسبانية**.

ولا يكتفي ثربانتس بتضمين مرافعتي كلٍّ من ريكوتيه وابنته آنا فليكس كلَّ ما تقدّم، بل إنه يقدّمها في **إطار درامي وموقف إنساني يبعث مشاهده على التعاطف العميق مع الفتاة ومعاناتها**، وفي حين تجري المرافعة الأولى لريكوتيه أمام جاره بعد أكلٍ كثير وشربٍ أقل، **ومصٍّ لعظم الخنزير المقدد وشرب للخمر**، تُقدَّم المرافعة

الثانية أمام نائب الملك وقائد القوادس وبحضور سانتشو بانثا الذي **تعزز شهادته من صِدْقِيَّتها**، وتأتي مُكمِّلة لمرافعة ابنته التي أخذت بألباب القوم، وأغرقت عيونهم بالدموع، حتى إن نائب الملك عمد إلى فك الرباطين اللذين كانا يوثقان يديها، دون أن ينبس بكلمة واحدة بسبب تأثره بما سمعه منها، خاصة لأنها قدمت مرافعتها في لحظات مروِّعة من ترقب الموت شنقًا، وكانت هذه المرافعة تنضح بالصدق حتى إنها دفعت بالقائد إلى التخلي عن قسمه بشنقها، وتركها تعيش سنوات عمرها التي حددتها السماء، وأكثر من هذا فقد انتهى الأمر بها وبأبيها إلى اشتراك الجميع في وضع خطة محكمة يستنقذون بها حبيبها غريغوريو من الجزائر، وباستضافة دون أنطونيو مورِنو لريكوتيه وابنته بتوصية من نائب الملك، فـ«الحلم والشفقة اللذان أثارهما في قلبه جمال آنا فليكس كانا عظيمين» (ص ١٠٦٧).

وبعد عودة غريغوريو سليمًا معافى من الجزائر بالخطة المحكمة التي وضعها القوم لاستنقاذه:

«بحث نائب الملك مع دون أنطونيو الطريقة التي يبقون بها على آنا فليكس وأبيها في إسبانية، وقد رأيا أنه ليس هناك من مانع من **بقاء ابنة نصرانية إلى ذلك الحد وأب يبدو حسن** النية. وقدّم دون أنطونيو نفسه لبحث الموضوع في البلاط الذي عليه أن يذهب إليه لأمور أخرى، حيث ألمح إلى أنه بالهدايا والعطايا تحل أمور كثيرة معقدة» (ص ١٠٧٦).

وهنا يتدخل ريكوتيه ليقدم، **بوصفه الضحية، شهادة غير مجروحة في جلاده، مفصحًا عن تمسكه بالعدالة بصرف النظر عما عاناه وأسرته من تطبيقها القاسي عليهم، وفي ذلك ما فيه من إظهار للولاء للتاج الإسباني والوطن:**

«–لا– قال ريكوت الذي حضر هذا الحوار – يجب ألّا نأمل شيئًا من العطايا والهدايا لأنه ما من توسلات أو وعود أو هدايا أو تأسُّفات تجدي نفعًا مع دون برناردينو دبلاسكو العظيم، كونت سالاثار الذي كلّفه الملك بطردنا، فهو مع جمعه بين الرحمة والعدالة يرى أن جسم أمّتنا موبوء وفاسد ويفضّل استعمال الكيِّ الحارق بدل المرهم المسكّن، ولهذا أخذ على كاهله ثقل هذه المهمّة العظيمة بالحكمة والنباهة، بالجدّ والتخويف، دون أن تتمكن حِيلُنا وخِدَعُنا وطلباتُنا وتدلّسُنا من أن تُزيغَ عن التّنين عينيه اليقظتين دائمًا كيلا يفلت منه أيٌّ من أهلنا الذي يبقى مثل جذر خفيّ، ينتش ويعطي ثماره السامّة مع الزمن في إسبانية التي أصبحت نظيفة خالصة من الخوف الذي وضعتها فيه جموعنا. حلٌّ بطولي هو الحل الذي اتخذه فيليب الثالث العظيم وحكمة لا مثيل لها تكليفه دون برناردينو د بلاسكو هذا بها!

– سأقوم بالإجراءات الممكنة واحدًا فواحدًا هناك ولتفعل السماء ما فيه الخير – قال دون أنطونيو– سيذهب معي دون غريغوريو ليواسي والديه على الحزن الذي هما فيه على غيابه، وآنا فليكس ستبقى مع زوجتي في البيت، أو في دير، وأعرف أن السيد نائب الملك سيسر ببقاء ريكوت الطيب في بيته ريثما نرى كيف سأتدبر الأمور» (ص ١٠٧٦–١٠٧٧).

بقي على المرء أن يتساءل من أين جاء اسم **ريكوتيه** ولماذا اختاره ثربانتس للموريسكي؟ الجواب على ذلك يكمن في الوقائع التاريخية لمعاناة الموريسكيين

أنفسهم، وبالتحديد في آخر صفحة من صفحات مأساتهم المروِّعة التي لاتزال حديث العالم حتى يومنا هذا(١٩).

صحيح أن ريكوتيه Ricote في الرواية هو موريسكي كان جارًا لسانتشو بانثا، وحانوتي ضيعته، ولكن علينا أن نتذكر أنه عندما طُرد الموريسكيون من إسبانية بالقوة بين عامي ١٦٠٩ و ١٦١٣ كان ميغيل دي ثربانتس يكتب الجزء الثاني من روايته، وكان من الصعب عليه وعلى معاصريه استبعاد مسألة الموريسكيين من ساحة وعيهم. وهكذا أعاد ريكوتيه إلى إسبانية بصفة حاج ألماني، ليسترد ماله، ويلمَّ شمل أسرته بالذهاب إلى الجزائر والعودة بزوجته وابنته المسيحيتين منها، ومَنَحَه، مثلما منح ابنته آن فِليكس، فرصةَ المرافعة عن حقهما في العيش في إسبانية، وطنهما الأصلي، وهو ما كان لهما في نهاية المطاف.

---

(١٩) صدر الكثير عن الموريسكيين ومعاناتهم في مختلف اللغات، ويمكن أن يشير المرء منها إلى:

Anwar G. Chejne,
Islam and the West: The Moriscos- A Cultural and Social History
(State University New York Press, New York, 1983).

عادل سعيد بشتاوي،

الأمة الأندلسية الشهيدة (تاريخ ١٠٠ عام من المواجهة والاضطهاد بعد سقوط غرناطة)

(المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٠)؛

John Docker,
1492: The Poetics Diaspora
(Continuum, London, 2001);
Henry Charles Lea,
The Moriscos of Spain; Their Conversion and Expulsion
(General Books, 2009).
Mathew Carr,
Blood and Faith: The Purging of Muslim Spain 1492-1614
(Hurst,& Company, London, 2009).

وعلينا أن نتذكر أيضًا أن **ريكوتيه** هو واد Vale de Ricote يقع في منطقة جبلية في الجنوب الشرقي من شبه الجزيرة احتضن آخر مجموعة من الموريسكيين الذين صمدوا حتى كانون الأول من عام ١٦١٣، وطردوا بعدها خارج إسبانية وتم تطهير الوادي منهم على حد أوامر الملك(٢٠).

وخلاصة ما يريد ثربانتس قوله في قضية الموريسكيين، أو بالأحرى تمريره لقارئ روايته في ذلك القرن الرهيب، أن إسبانية التي أصرت على أن تجعل من دولتها دولة خالصة للإسبان النصارى الكاثوليك، أسرفت أيما إسراف في عنصريتها عندما لم تكتف **بالتمييز العنصري Racial Discrimination** بل أضافت إليه التمييز الديني **Religious Discrimination**، وأكثر من هذا فإنها مضت في عنصريتها إلى حد التمييز بين المسيحي الكاثوليكي، وغيره من المسيحيين من أتباع الكنائس الأخرى. وأسوأ من كل ما تقدم أنها أقامت **محاكم تفتيش**(٢١) تحاكم الناسَ على ضمائرهم وما في قلوبهم، فوصل بها الأمر أن **تحرم مواطنيها الموريسكيين الذين تنصروا وعُمِّدوا في الكنيسة الإسبانية الكاثوليكية، من حق الإقامة في وطنهم، بحجة حداثة نصرانيتهم، ورِقَّة كاثوليكيتهم، مع أنهم أظهروا من الولاء للملك ولإسبانية ما يكفي ليجعلهم على قدم المساواة مع غيرهم من مواطني إسبانية التي**

(٢٠) انظر: L.P. Harvey,

Muslims in Spain: **1500 to 1614**

(The University of Chicago Press Chicago & London, 2005), p.330

(٢١) انظر: Joseph Perez,

The Spanish Inquisition, Translated by Janet Lloyd,
Yale University Press, New Haven and London, 2002 (or 2004)

بَنَتْها حركة الاسترداد، وكانوا يتقنون اللغة القشتالية، غير أنهم لِهُجنةٍ استقرت فيهم، بفعل الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، التي امتدت تسعة قرون، لم يعودوا في نظر هذه الحركة يصلحون ليكونوا مواطنين في الإمبراطورية الإسبانية النقية، وتلك لعمري أسوأ عنصرية شهدتها الإنسانية.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁

مَصَادِرُ وَمَرَاجِعُ البَحْثِ

- أبو ملهم، نجيب، وموسى عبود،

سرفانطيس: أمير الأدب الإسباني

نشر المندوبية السامية الإسبانية بالمغرب- نيابة الأمور الوطنية- مكتبة الترجمة الإسبانية- العربية، (مطبعة المخزن، تطوان، ١٩٤٧).

- بشتاوي، عادل سعيد

الأمة الأندلسية الشهيدة (تاريخ ١٠٠ عام من المواجهة والاضطهاد بعد سقوط غرناطة)

(المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٠).

- بوجاه، صلاح الدين

«ميغال دي سرفنتيس».. في أصول صاحب «دون كيخوت» الأندلسي في:

شبكة الأمة برس العربية الأمريكية الإخبارية المتعددة اللغات

THE NATION PRESS ARAB AMERICAN NEWS NETWORK

الناشر – رئيس التحرير : عبد الناصر مجلي

- ثربانتس، ميغيل د، **دون كيخوت دلامانتشا**، ترجمة رفعت عطفة، (دار ورد، دمشق، ٢٠٠٤).

- Carr, Mathew,
Blood and Faith: The Purging of Muslim Spain 1492-1614
(Hurst,& Company, London, 2009).

- Cervantes, Miguel de,
Don Quixote de la Manch,
Edicion, Notas E Introduccion Alberto Belcua, (Espasa Calpe, S. A. 2007).

- Cervantes, Miguel de,
Don Quixote de la Manch,
Translated by Charles Jarvis, Edited with an Introduction and Notes by E. C. Riley,
(Oxford University Press, Oxford, 1992).

- Chejne, Anwar G.,
Islam and the West: The Moriscos- A Cultural and Social History
(State University New York Press, New York, 1983).

- Docker, John,
1492: The Poetics Diaspora
(Continuum, London, 2001).

- Garces. Maria Antonia,
Cervantes in Algiers: A Captive's Tale
(Vanderbilt University Press, Nashville, 2002).

- Harvey, Leonard Patrick, M. A. D. Phil., Servantes Professor of Spanish,
- The Moriscos and Don Quixote,
Inaugural Lecture in the Chair of Spanish,
Delivered at the University of London, King's College, 11 November 1974.
- Muslims in Spain: 1500 to 1614
(The University of Chicago Press Chicago & London, 2005).

- Jonson, Caroll B,
"Phantom Pre-texts and Fictional Authors:
Sidi Hamid Benengeli, Don Quijote and the Metafictional Conventions of Chivalric Romances",
Cervantes: The Cervantes Society of America,
(2007.1) Spring 2007, Pp. 179-99**.**

- Lea, Henry Charles,
The Moriscos of Spain; Their Conversion and Expulsion
(General Books, 2009).

- McCrory, Donald P,
No Ordinary Man: The Life and Times of Miguel de Cervantes
(Peter Owen, London, 2002).

- Joseph Perez,
The Spanish Inquisition, Translated by Janet Lloyd
(Yale University Press, New Haven and London, 2004).

- Wesley, Carlos,
"The Joy of Reading Don Quixote",
Fidelio, Vo. XII, No. 3, Fall 2003.